1
سفينة
الأصدقاء

مع الدب

فى سيبيريا

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمد فايد

دار الرشاد

مُنْذُ سَنَوَاتٍ بَعِيدَةٍ .. بَعِيدَةٍ .. كَانَ مُحَمَّدٌ شَابّاً صَغِيراً يَعِيشُ مَعَ أُسْرَتِهِ ، وكَانَ وَالِدُهُ يَعْمَلُ مُؤَلِّفًا لِلْقِصَصِ ، وكَثِيراً ما كانَ الأَبُ يَقُصُّ عَلَى ابنِهِ قِصَصَ الخَيالِ والمغَامَراتِ .

وذَاتَ يَوْمٍ .. قَرَّرَ مُحَمَّدٌ أَنْ يُقَلِّدَ والدَه فى تَأْلِيفِ القِصَصِ ، فَابْتَكَرَ مُغَامَرَةً خَيَالِيَّةً من تَأْلِيفِهِ ، وكَانَ هُوَ بَطَلَها ، يَقُومُ فيها باصْطِحَابِ مَجْمُوعةٍ مِنَ الحَيَوانَاتِ لِيُعِيدَها إلى بِلادِها الأَصْلِيَّةِ ..

فى رِحْلَةٍ بَحْرِيَةٍ ، مُسْتَعِيناً بما جَمَعَهُ من مَعْلُوماتٍ عَنْ هَذِهِ الحَيَوانَاتِ وأَمَاكِنِ وجُودِها الأَصْلِيَّةِ ، وعَادَاتِ أَهَالى تِلْكَ البِلادِ .

وكانَ من عادةِ مُحمَّدٍ أنْ يَترُكَ قِيادةَ السَّفينةِ لمنْ تُصيبُهُ القُرْعَةُ منَ الحَيوانَاتِ لأنَّهُ أعْلَمُ بالطَّريقِ إلى بِلادِهِ ، وكانَ أيضاً يَصْطَحِبُ مَعَهُ فى هذه الرِّحْلَةِ بَبَّغاءً جَميلاً أخْضَرَ وقِطًّا لَطيفًا مُسْتَعينًا بِهِمَا فى التِقاطِ وَرَقَةِ القُرْعَةِ .

سأل مُحَمَّدٌ الدُّبَّ : « أين نحنُ ؟ » .

فأجاب الدُّبُّ الأسمرُ ، وعيناهُ الصَّغيرتان تلمعان من شدَّة الفرح : « نحنُ بجانب نَهْرِ آمور فى وطنى سيبيريا ، التى تمتدُّ امتداداً عظيماً فى شمال آسيا ويُغطِّيها الجليدُ معْظَمَ شهورِ السَّنة ، ونحنُ لا نبعدُ كثيراً عن البحرِ .

تأمَّلَ مُحَمَّدٌ ما حولَهُ ، فإذا هُوَ فى غابةٍ كثيفةٍ ، أشجارُها عاليةٌ ، يخترقُها نهرٌ واسعٌ .. وبينما هُما كذلك ، إذْ صاحَ الدُّبُّ :

« إنّى أشمُّ رائحةَ إنسان !! إنَّ حاسَّةَ الشَّمِّ عندى قويَّةٌ جداً ، ولَوْ أنَّ نظرى ليْسَ حادًّا ، فأنفى هُوَ الَّذى يهْدينى إلى حيْثُ يكُونُ طعامى ، ويُرْشدُنى إلى حيثُ يكُونُ عدُوّى .

وهُوَ يُنبئنى فى هذه اللَّحظةِ الَّتى نحنُ فيها أنَّ إنساناً يقْتربُ منَّا ، وأنَّ النَّحلَ كانَ يصنَعُ عسلاً منْ عهْدٍ قريبٍ ، فى هذا المكان . ولذلكَ أرى أنَّ الأفضلَ لى أنْ أذهبَ لأجْمعَ ذلكَ العسلَ وأخزِّنَهُ عندى » .

فسألَهُ مُحَمَّدٌ : « وأينَ تُخفى ذلكَ العسلَ ؟ »

فأجابَ الدُّبُّ : « فى جُحْرى الَّذى أتَّخذُه بيْنَ الصُّخُورِ أو فى جذْعِ شجرةٍ خاويةٍ » .

قالَ مُحَمَّدٌ : « ألا تأكُلُ شيئاً غيْرَ العسَلِ ؟»

قَالَ الدُّبُّ : « إنِّى آكُل أىَّ شَىءٍ يا صَديقى ، وأسْنَانِى قَـوِيَّةٌ لا بَأسَ بِهَـا ، فـأنا آكُلُ جُـذُوعَ الأشْجَارِ ، أو الفِئْرَانَ ، أو اللَّحْمَ ، ومِنْ ضِمْنِهِ لُحومُ البَشَر ، ولَولاَ أنَّكَ صَديقِى ، لاتَّخَذْتُ من لَحْمِكَ أكْلَةً لَذِيذَةً !! والآنَ يَجبُ أنْ أخْـتَـفِى فى هَذِهِ الـغابةِ !! لأنَّ « الجليَـــاك » وهُـمْ سُكَّانُ هَـذَا الإقْليمِ ، إذَا رَأوْنى طَارَدُونى !! ليَصْطَادُونى .. الوَدَاع ! ».

قال الدُّبُّ ذلك ، وأسْرَعَ إلى الغابَةِ ، وفى لَمْحِ البَصَرِ كان قد اختفى عَنْ عيونِ مُحَمَّدٍ .

أمّا مُحَمَّدٌ فتلفَّتَ حَوْلَه ، فرأى رَجُلاً طَويلاً يمْشى فى الغابَة ، يَحْمِلُ حَرْبَةً ، وقَوْساً ، وبضْعَةَ أسْهُمٍ . ولَمَّا رأى مُحَمَّدٌ الرَّجُلَ تقدَّمَ نحْوَهُ قائلاً :« أهْلاً وسَهْلاً !! قالَ الرَّجُل - وكانَ من قَبيلة الجلياك - :« أهلاً بك ! مَنْ أنْتَ ؟ وكيْفَ جئْتَ إلى هُنا ؟ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « لَقَدْ أَحْضَرْتُ الدُّبَّ الأَسْمَرَ إِلى وَطَنِه » .

قَالَ الرَّجُلُ : « الدُّبُّ الأَسْمَر !! لَكِنْ أَينَ هُو ؟ إِنَّ الدُّبَّ حَيوانٌ قَوىٌّ وشُجاعٌ ، ونَحنُ نَصْطَادُهُ ، حَيثُ نَجِدُهُ ، وإِذا اصْطَدنا دُبًّا جَعَلْنَا له حَظِيرةً خَاصَّةً بِه ، وأَطْعَمْنَاهُ لَحمًا وعَسَلاً ، وفى فَصْلِ الخَرِيفِ يكُونُ لنا مَعَهُ شَأْنٌ آخَر » .

فسَأَلَ مُحَمَّدٌ : « وماذا تَصْنعُونَ فى فَصْلِ الخَرِيفِ ؟ » .

فَأَجَابَ الرَّجُل : « نَذْبَحُهُ لنَأْكُلَهُ » . فذُعِرَ (خَافَ) مُحَمَّدٌ ، وقالَ فى نَفْسِه : « إِنِّى لأَرْجُو ألاَّ يكونَ هَذا نَصِيبَ دُبِّى » .

ثُمَّ خَاطَبَ الرَّجُلَ قَائلاً : « أَظنُّ أَنَّكَ صَيَّادٌ ؟ أَلَسْتَ كَذَلِكَ ؟؟ » .

فَأَجَابَهُ الرَّجُل : « نَعَم ، هُوَ ذَاكَ ، فى الغَابَاتِ أَصْطَادُ الثَّعَالِبَ والخَنَازِيرَ والدِّبَبَةَ والغِزْلاَنَ ، وفى الأَنْهَارِ أَصْطَادُ الأَسْمَاكَ ، وفى البِحَارِ أَصْطَادُ الحِيتَانَ وعِجْلَ البَحْرِ ، على أَنَّ فى بِلاَدِى أَشْيَاءَ كَثِيرةً غَيرَ هَذِه نَأْكُلُها ؛ فَعِنْدَنا بَيْضُ الطُّيورِ البَرِّيَّةِ ، وكَذَا التُّوتُ والذُّرَةُ اللَّذانِ نَشْتَرِيهُمامِنَ التُّجَّارِ الَّذِين يَفِدُون مِنَ الصِّين .

.. تَعَالَ مَعِى لأُعْطِيَكَ شَيئًا تَأْكُلُه » .

شكرَ مُحَمَّدٌ الرَّجُلَ بِكُلِّ رِقَّةٍ ولُطْفٍ ، وسارَ بجانبِهِ ، ولمَّا وَصَلاَ إلى القَريةِ لاحَظَ مُحَمَّدٌ أنَّ الأكْواخَ جَميعَها عِبارَةٌ عن قَوائِمَ خَشَبِيَّةٍ مَسْقُوفَةٍ بخَشَبِ « البَتُّولا » ، وهي مُتَفَرِّقَةٌ هُنَا وهُنَاكَ ، ولكُلِّ كُوخٍ سُورٌ عالٍ حَوْلَهُ .

دَخَلَ الصَّيَّادُ كُوخَه ، وتَبِعَه مُحَمَّدٌ ؛ ولَمْ يَكُنِ الكُوخُ سِوَى غُرْفَةٍ واحِدَةٍ كَبِيرةٍ ، قَدْ رُصَّتْ فى جَوانِبِها مَقاعِدُ مِنَ الخَشَبِ ، قَدْ جَلَسَ عليها أفْرادُ الأسْرةِ جَميعُهُم وفِيهِم الجَدُّ والجَدَّةُ ، والأطْفالُ الصِّغارُ وفى وَسَطِها « بَيْتُ كَلْبِهِم الذى يَعيشُ بَيْنَهُم لِيَقِيهِمْ شَرَّ الحَيواناتِ المُفْتَرِسَةِ التى قَدْ تُهاجِمُهُمْ مِنَ الغابةِ .

وبَعْـدَ أنْ جَلَسَ مُحَمَّدٌ قَلِيـلاً ، يَتَجـاذَبُ مَعَ الصَّـيَّاد وأُسْرَتِهِ أطْرَافَ الحديثِ ، قَـامَ الصَّـيَّادُ وأحْضَـرَ حِسَـاءً (شُوربَة) فى وعَاءٍ من خَشَبٍ وقَدَّمَهُ لمحمَّدٍ .

وشَرِبَ مُحَمَّدٌ الحِسَاءَ ، وإنْ لَمْ يُعْجِبْهُ طَعْمُهُ كَثيراً ؛ لأنَّه كَـانَ مَـصْنوعـاً مِنَ السَّـمَكِ واللَّحمِ والتُّـوتِ والصَّنَـوْبَرِ والدَّقِيقِ ودُهْنِ عِجْلِ البَحْرِ ، كُلُّها مُجْتَمِعةٌ .

ثُمَّ أخذَ يرقُبُ مَنْ حولَه مِنَ النَّاسِ ، فلاحَظَ أنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ ، على السَّواءِ ، يَلْبَسُون مَلابِسَ مُتشابِهةً مِنَ القُطْنِ الذى يَسْتَوردُونَه من الصِّينِ ، وكانُوا جَميعاً يَرتَدُون « سُتَراً » واخْتَصَّ الرِّجَال (بأحْزِمَةٍ) يَتَدلَّى مِنْها سِكِّين ، وكانتْ قُبَّعاتُهم جَميعاً ، مَخْرُوطيَّةَ الشَّكْل ، مَصْنوعةً من قِشْرِ شَجَرِ « البَتُّولا » .

وكانتْ تَنْبَعِثُ مِنَ الكُوخِ رائِحةٌ سَمَكيَّةٌ قويةٌ ؛ حتَّى لقَد قَالَ مُحَمَّدٌ:

« لا بدَّ أنَّ أهمَّ طعامٍ عِنْدكُم هو السَّمَك!! » .

أجَابَهُ الجَدُّ : « نَعَمْ ، هو كَذَلِكَ ؛ فالسَّمَكُ غِذَاؤنا الرَّئيسيُّ ، ونَحْنُ نَصْطادُهُ بالصَّنَّارة أو بالشِّبَاكِ التى تَصْنَعُهَا النِّسَاء بإبرٍ من الخَشَبِ ، ونَحْنُ نَأكُلُ السَّمكَ طازَجاً ، وما يَزيدُ عَنْ حَاجَتنا ، نُجفِّفُهُ إنْ كُنَّا فى فَصْلِ الصَّيفِ ، أو نُثَلِّجُه ، إنْ كُنَّا فى فَصْلِ الشِّتَاء ، ليظلَّ صَالحاً للأكْلِ لزمنٍ طَويلٍ ، ونَوافِذُ أكْوَاخِنا الشَّتْوية ، تُتَّخَذُ من جُلودِ الأسْمَاكِ ، وذلكَ الكيسُ الذى أحْفظُ فيه أمْوَالى ، مَصْنوعٌ من جِلْدِ السَّمَكِ أيْضاً ، وأنا لازِلْتُ أذْكُرُ أنَّنى لَمَّا كُنتُ طِفْلاً ، كنتُ أُزيلُ القُشُورَ عَنْ جُلودِ الأسْمَاكِ ، بمِطْرَقةٍ خَشَبيَّةٍ ؛ لأجْعلَ منها جِلْداً نَاعِمًا لَطِيفًا ، ومِنْه نَصْنَعُ الملاَبسَ التى نَرْتَديها فى الصَّيفِ فَلاَ شَكَّ أنَّ السَّمكَ أفْيَدُ شىءٍ فى العَالَم » .

ولما انتهى الجدُّ من حديثه اندفع الكلبُ صائحاً :

« وأنا .. هل نسيتنى ؟ » ثم مال برأسه قليلاً وأغمض عينيه وهزَّ ذيله ، وصاح : « ألستُ أجرُّ لكم المراكبَ الثلجيَّةَ التى تحملُ أمتعتكم ألستُ أساعدكم ؟ ألستم تأكلُونني ، عندما لا تجدونَ طعاماً سواى ؟ ألستم تتَّخذُون من جلدى ملابسكم الشتويَّة ، إذا عجزتم عن صيد عجْلِ البحرِ ؟ إننى - ولا شكَّ - نافعٌ لكم . كالسَّمك تماماً !! » .

ولَمَّا سَمِعَ مُحَمَّدٌ ذلكَ أُعْجِبَ كَثيراً بالكَلْبِ ، ومَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ مُحَمَّدٌ إلى الجَدِّ قَائلاً :

« إنَّنى أظنُّ أنَّ أشْجَارَكُم لا تقلُّ فَائِدةً عَنْ حَيَواناتِكم !! فأكْواخُكم مِنَ الخشَب ، وسُقُوفها من شَجَر « البتُّولا » ، وأحْذِيَتُكم الثَّلْجِيَّةُ من الخشَبِ ، ولكُمْ قَواربُ من خَشَبِ شَجَرِ « الأَرْزِ » ؛ بَلْ إنَّ أطباقَ الأكْلِ ، ومُعْظَم ما أرى فى هَذَا الكُوخ مِنَ الخَشَب !! ».

فأجَابَ الصَّيَّادُ : « هذا صَحِيح ! والآنَ ألا تُرِيدُ أنْ تُرافِقَنا إلى الغَابة ؟ كُلُّنا على الدَّوام نَذْهَبُ إلى الغَابةِ للصَّيد ، ولا يَتخَلَّفُ مِنَّا إلاَّ كِبَارُ السِّنِّ ، الَّذين يَظَلُّون فى البُيُوت ، لِيُؤَدُّوا بعضَ الأعْمالِ ، والأطْفَالُ الَّذينَ يَعيشُونَ على لَبَنِ الغِزْلان ؛ وإذا رَغِبْتَ فى الذَّهابِ مَعَنا ، فاحذرْ أنْ تَضِلَّ الطريقَ فتَضيعَ !! إذْ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أنْ تَسيرَ فى مِثْلِ هَذه الغَابَةِ التى تَتَشَابهُ أشْجَارُها وتَنْعَدِمُ فيها الطُّرُقُ » .

قالَ مُحَمَّدٌ :

« إذا كَانَ الأمْرُ كَذلكَ فلا حَاجَةَ بِى إذَنْ للصَّيدِ الآنَ ؛ فَعِنْدِى أعْمَالٌ كَثيرةٌ وسَفَرى طَويلٌ !! .. وأخْشَى إذَا صَحِبْتُكُمْ إلى الغَابَةِ ، أنْ أضِلَّ بِهَا ، فأتَأخَّر .. الوَدَاعَ .. الوَدَاعَ .. » .

وَصَلَ مُحَمَّدٌ إلى السَّفينة

وكانتِ الحَيَوانَاتُ كُلُّهَا فى انْتِظَارِهِ وأجْرَى القُرْعَةَ

وكَانَتْ مِنْ نَصيب الأرْنَب الذى قال لمحمَّد :

« اذْهَبْ أنْتَ لتنامَ .. وأنَا سَأقُودُ السَّفِينةَ إلى بِلاَدِى وسَوفَ أُوقِظُكَ عِنْدَما نَصِلُ » .

واسْتَيْقَظَ مُحَمَّدٌ علَى صَوْتِ الأرْنَبِ وهو يَقُول : « لَقَدْ وَصَلْنَا ».

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٨٢٧٧ / ٩٨
الترقيم الدولى : 7 - 63 - 5324 - 977
الطبـــــع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : **آرمس**
العنـــــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــــون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م

obeikandl.com